حجج فلسفية تدعم نظرية النشوء

بقلم الاب فيلكس سوانيون اليسوعي

ما طال الامر على نظرية النشوء والارتقاء التي طُرحت علمياً في القرن التاسع عشر حتى انقلب الى مشادة فقد ارتكب مناصرو هذه النظرية الجديدة ضروب التطرف التي احدثت ردّات فعل لا تقل في عنفها عن شطط تطرّفهم ، فانهم قد حوّلوا الاحتمالات الى يقين بواسطة ادماج بعض اضافات بالموضوع وهي لا تمتّ اليه بصلة وبواسطة تعليلات واهنة لا ترتكز الّا على تصورات ضيقة الاستناد المنطقي زاعمين انهم اوجدوا تفسيراً لاصل المخلوقات شاملاً حاسماً ، ولم يكن شططهم من الوجهة المتافيزيقية الّا اشدّ خطراً لزعمهم اطراح كل غائية من تفسيرهم ، فظن بعض انصار نظرية داروين وحتى داروين نفسه انهم قد عثروا في مذهب النشوء والارتقاء على برهان يؤكد ان ليس ثمة لا خلق ولا خالق .

واذ شعر المعارضون بوهن براهينهم واذ ارتضوا بدون بحث بمعارضة نظرية النشوء والارتقاء للخلق وكان من بينهم علماء حقيقيون ككوفيه (Cuvier) وكلود برنار (Claude Bernard) وباستور (Pasteur) ردّوا اقوالهم بجملتها .

اما اليوم فالعلماء المؤمنون وغير المؤمنين فهم اشدّ حكمة واللاهوتيون اقلّ تعنتاً . وعلى كل فاننا نرى انه لو رددنا النظرية العلمية والعقيدة الايمانية الى حدودها الحقيقية لما رجدنا بينهما تناقضاً .

ان الفلسفة نفسها لعلى اتصال مستمر بالعلم التجريبي ، فهي تفتش وراء التفسير الظاهري عن نواميس المادة والحياة والفكر وليس بمقدور التقدم الجديد في العلم ان يزعزع ما هو وطيد في مذاهبها واغا على العكس من ذلك فانه اذا ما حمل اليها عناصر موضوع جديدة يمكنها من الاتيان بتركيب افضل .

أفهذا هو الوضع في نظرية النشوء والارتقاء ؟ فلنتدبر الامر في محور نظريتها التي لم تبقَ موضوع بحث الآن : لقد كان للحياة تطور على الارض ، فالاشكال المتتابعة التي اوضحتها دراسات المستحاثات لم تتعاقب فحسب ولكنها قد تناسلت ، فكان التقدم في مجموعها من الاشكال ذات المظهر الفسائلي واحياناً

ذات المظهر الشائك تقدماً تدريجيا وعلى الخصوص في الاعصار الوسطى : قال لكونت دونويه (Lecomte de Noüy) في كتابه: «الانسان ومصيره» ص ١٨٠ «لقد جرت الامور منذ ولادة الخلية الاصلية كما لو كان الانسان هو المقصود.»

وهل يناقض مذهب النشوء والارتقاء مبادئ علم ما وراء الطبيعة للقديس توما ؟ في سبيل البتّ في هذا الامر لا بد لنا من دون ان نتعجّل مقارنة نظرية مذهب النشوء والارتقاء بهذه المبادئ .

وهذه الدراسة قد تصدّت لها المجلة المدعوة « المجلة اللاهوتية الجديدة » سنة ١٩٣٢ ص٥٧٧ وما يليها ، وانه ليتضح للقارئ على ما اعتقد ان ما سأجيء به ليس ترداداً لما قيل في تلك المجلة .

ولندع جانباً بادئ ذي بدء ذريعة واهية لا طائل تحتها، فلا سبيل لانكار ان القديس توما هو من القائلين بخلق الموجودات كاملة وذلك بالنظر الى تعليمه الصريح ، فقد قال في موجزه اللاهوتي « انه من المحتمل جد الاحتمال ان يكون البدر قد صُنع كاملاً وان تكون النباتات (منذ خلقها) في حالة اكتمالها في اتخاذها جرمها وكذلك بقيّة الحيوانات والانسان. (1re partie de la Somme. question 70. article 2. 3me réponse)

واكد نفس التأكيد في موضع آخر 1re ; v.g. « de la seconde. q.5,a.7. 2me réponse. »

وهو مع ذلك يسلم بظهور انواع جديدة على مجرى الاجيال من جراء تأثير الاجرام السماوية (1a,q.73,a. 1,ad 3 um) ولقد جاء في قول له سابق (2 dist. 12.q.1.a.2) ما حملنا على رؤيته متردّدا اولاً بين القديس اوغسطينوس وغيره من آباء الكنيسة حول تفسير سفر التكوين .

وفضلاً عن هذا فان القديس توما لم يحارب اساساً مذهب النشوء والارتقاء الذي كان بسيط العناصر عند الاقدمين ، ففي عهده كانت محاربته قد انقطعت ولم تكن قضيته موضوع بحث .

لقد بقي علينا ان نعرف : هل اضطرته مبادئه فلسفته الى تبني المذهب القائل ان الموجودات كان خلقها كاملاً ؟ ام على العكس من ذلك هل كانت مبادئه وليدة الاختبار الدقيق جدّ الدقة لكي لا تقوى حقيقة علمية جديدة مفروض

بالبرهان تبوتها الا على تأكيد هذه المبادئ. وايجاد ما يثبتها فيها اثباتاً صحيحاً.

اما مبادئ ما وراء الطبيعة التي يبدو تأثيرها في مذهب النشو. والارتقاء. فهي التالية : التقدم الشامل ، الغائية والمقدرة الفعلية الموجهة في وجهة معينة الشاملتان ، السببية الشاملة ، وفي المعنى المخالف على ما يبدو ، عدم تغير الشكل.

١ – التقدم الشامل

التقدم هو سنة الكون ، ولا شك في ان الاكثر لا يخرج من الاقل وان غير التام لا يفسره الا التام في سياق السببية الفاعلة والغائية ، واذا لم نأخذ بعين الاعتبار الا المبادئ الباطنية فالطبيعة تسير من غير التام الى التام لان الاسباب لا تحدث من المرة الاولى مفعولها (١) ، هذا هو ناموس التحولات الخاصة.

والطبيعة في مجموعها تبدو متبعة سيراً مماثلاً لهذا السير اما الخلق فقد كان بالتدرج لا لكون الصانع الالهي كان بحاجة الى ان يعمل على مراحل بالتدرج ولكنه اراد ان يحقق نظاماً ما وجمالاً ما (٢) .

ومن الواجب ان يكون تصور جميع الطبيعة وليس الحياة وحدها على شاكلة التصعيد ، فالمادة الاولى هي بالقدرة لكل شيء. وانما في سياق تقدمي(٣) ، فان العمل الانساني يسير وفق الناموس التقدمي كالعلم النظري والعملي مثلاً .
(Cf. IaIIae,q.9,7,a.1 ; et De Veritate, XIV.10)

ولقد كان الوحي الغائق للطبيعة بصورة تقدمية من الوجهة الانسانية .
(Cf. Ia,q.37,a.3 ad 3um ; et IIa IIae,q.1,a.7)

ومذهب النشو. والارتقاء. هو خير تطبيق لهذا المبدإ للتقدم الشامل ويسير التناسل مثل كل حلقة من حلقاته نحو كماله ، وفوق تطور كل تناسل خصوصي يتكدس تطور المجموع ، والحياة بمجموعها هي ارتقاء نحو مثل اعلى لم يتأت بلوغه قط وانما هو الهدف الذي يرمى اليه دائماً .

وليس شيء من هذا كله في المذهب القائل بان الموجودات قد خلقت تامة وانما من الواجب القول ان كل فرد يتطور نحو مثاله النوعي ما عدا الفرد الاول الذي كان افتتاح سلسلته به ، فهذا الفرد كان لا بد له من ان يكون المثال الاول ولن لا يتقيد بناموس التقدم التطوري الفردي .

٢ - الغائية والقدرة الفعلية الموجهة في وحدة معيّنة الشاملتان

ليس الكائن مندفعاً من الخارج فقط في سيره نحو كماله مثل متحرك جامد ، فان الله قد جعل فيه مبدأ حركته ولو على الاقلّ جزئياً ، فالقدرة التي ندعوها قدرة منفعلة ليست امكانية بسيطة وقابلية لا ايالية فهي قدرة فعلية وتوق . ان الفعل هو غاية فالمادة تنزع الى الشكل نزوعاً غامضاً على شاكلة الانثى والذكر(٤) فكل شيء يتوق الى الارتفاع نحو الله .

ان توقان المخلوقات وإنْ مادّية وانّ ارتفاعها هذين نحو مبدإها فلمّا يعرفه بعض السكولاستيكيين المعاصرين .

اذًا ما هو مذهب النشوء والارتقاء الغائيّ ؟ لان المراد هو ما يأتي : « ان نظرية التطوّر لا تصبح معقولة الّا عندما تضمّ تفسيرًا غائيًا الى تفسيرها الآلي الرائج»(٥)،الا وهو توقان المادّة العظيم الى الروح عبر جميع المراحل الوسيطة وهو مجهود الحياة المستمرّ للوصول بمساعدة السبب الاول لاحداث الانسان الغاية في الكمال الذي بمقدوره اقام هذا الصعود الى ما وراء المحسوس .

وفي المذهب القائل ان الموجودات قد خلقت كاملة فلا ينكرون هذا الاشتياق كل الانكار ولكنه يظلّ بدون طائل في كل كائن خاص ولا يحصل على مفعوله الّا خارجاً عن ذاته وبدونها بواسطة تكرار امور يمدّ بعضها مدّ بعض ، وليس فيه سير نحو المثل الاعلى وانما هو الفكر الانساني الذي يمدّ حركة النظر المستمرة على المشاهد المتعاقبة غير المتحركة على شاكلة رؤية العين لمناظر السينما وذلك وفقاً لما رسمه الباري.

٣ – السببية الشاملة

يحقق الله مقاصده على الارض بالتعاون مع مخلوقاته لا عن عجز منه بل عن جودة ، ولا يقلل هذا شيئا من نطاق عمله فهو يصنع ما يأمر الاسباب الثانوية بصنعه بوصفه العامل الرئيسي، وان ما ننسبه الى المخلوقات ليس مقصيًا عن الخالق وعلى العكس فان ما نقصي المخلوقات عنه فالله مقصيّ عنه (٦) وان كل جوهر هو مركز اشعاع على شاكلة الله الذي يأخذ بدوره ويعطي كل ما هو كائن وحتى ما وراء الكائن لانه يساعد الغير على الصعود الى ارفع ، فالكون وحيد بالسببية

والغائية الشاملتين اكثر بكثير مما هو وحيد بالمادة المشتركة وتسلل درجات الاشكال (٧) . وعبثاً اكدوا مبدأ الوحدة العامة فانه من الصعب رؤية تحقيق هذا المبدأ في المذهب القائل ان الموجودات قد خلقت كاملة سوية ، وليست هذه الوحدة على كل حال وحدة عضوية ضمنية فهي مفروضة من الخارج على شاكلة الوحدة التي يفرضها الفنان الانساني على مواده وهي في احدى النواحي ابعث على العجب ، أفهي لذلك اجمل من قبل واهل لله ؟

وعندما نقول ان الفرد الاول من احد الانواع قد خلقه الله بدون مساعدة الاسباب الثانوية فتلك عدة معجزات نفرضها على الايمان ، لاننا نفرض عليه بذلك عدة ظاهرات لا سابقات طبيعية لها . اما في الانواع الدنيا فالفرد الاول هو بذرة ، اما الحيوانات اللبونة الاولى فلا بد للنوع من ان يبدأ فيها بولد بالغ لان صغيرها لا يستطيع ان يعولَ نفسه بنفسه وبالاحرى لا بدّ له من ان يبتدئ بفردين اثنين ، وبما ان الحياة حركة مستمرة فينبغي لهذين الفردين الاولين ان يكونا مخلوقين في وسط الحركة الكاملة وبانسجام كل اجزائها مع ايقاع الدم في دورانه ، دم البروق في احد البطنتين والدم المشبع بالاوكسيجين في البطين الثاني وبانسجام كل اجزائها مع التيارات العصبية في جميع نقاط مراحلها ومع الاغدية في كل دورات تمثلها وعدمه ومع فائض فضلاتها في طريقه الى الخارج البالغ ولا بدّ له ايضاً من غرائز لا الغريزة الفطرية الغير واضحة فحسب بل الغرائز التي نمت نمواً يماشي سنّ رشده مما يفرض عادة الخبرة والذاكرة . . .

وبالطبع ليست هذه الامور مستحيلة غير ان الاحتمال المتافيزيقي ليس برهاناً ، فلو قيل ان الباري قد خلق مدينة في صحراء خالية من السكان خلقها من الفها الى يائها وجهزها بتنافسها وجعل لها مطابخها وآنية طعامها وفارها المشتعلة وانضج وجبة الطعام من البيض نصف نضج . . . فانا لا استطيع القول ان هذا مستحيل من الوجهة المتافيزيقية ولكن . . .

أو لم يميّز اللاهوتيون في الله قدرتين ؟ (Absoluta et ordinata).

ان معلومات ارسطو والقديس توما في علم الحياة لم تكن تتعدى الخبرة الدارجة في ايامها ، فانهما لم يكونا يعرفان عن تركيب مجموعة الاعضاء الحيوانية الا الامور الظاهرة فبدا لهما ان خلق بالغ مباشراً لهو امر سهل .

٤ – عدم تغير الشكل

التبديل بحد ذاته يفرض لنفسه قاعدة ضمنية ثابتة ، فان الاعداد لا تتبدل اما زيادة وحدة فينتج عددًا اخر يحل محل الاول ، فكذلك هي الحال مع الاشكال ، فالشكل الاعلى العارض يحتوي تمام الشكل الاسبق له احتواء كليًا بيد انه من نوع آخر (٨) .

وباستطاعتنا الوقوف عند هذه النقطة وان نسلم بان انتقال الحياة من ذرية الى ذرية اما انه يتم في نفس النوع او انه اذا كان ثمة تقدم فان هذا التقدم ينقل النسل الى نوع آخر ، ان القديس توما يعرف الاسباب التي لا تورث مثلًا لها ولكنه يعلم ان الفرد نفسه بتقدوره ان يتخذ اشكالًا مختلفة على التعاقب كالجنين الانساني مثلًا فهو في شكل نباتي اولًا ومن ثم حيواني ومن ثم انساني (Cf. C. G. III, c. 22) .

وثمة امور اكثر من هذه ايضاً : ان الشكل النوعي ذاته قد يشترك فيه افراد مختلفون من النوع نفسه اشتراكاً متفاوتاً ، واخيرًا يستطيع الفرد في غضون وجوده ان يساهم مساهمة متفاوتة في شكله اعني بالازدياد فيه ازديادًا مطردًا ، وذلك واضح في الاشكال العارضة كالبياض والحرارة ، ويبدو انه من الواجب التسليم بهذا الامر للشكل الجوهري (٩).

وفي سبيل ادخال التطور النشوئي ضمن نطاق المبدإ الفلسفي القائل ان للاجسام مبدأين متميزين يتمّ احدهما ثانيها اي المادة والشكل امامنا ان نختار بين حلول عدة : هي اما وجود عدة اشكال نوعية متباينة تتعاقب في تحدرها من نوع واحد واما وجود شكل وحيد ينطبق على تحدر نسل واحد محدود الوضع الزمني (هذا ما نسميه اصل الانواع) وينظم شيئاً فشيئاً مادته سائرًا بها نحو مثالها التام بما يحققه من سلسلة اعمال متعاقبة ، وان كل فرد يساهم بهذا الشكل المثالي مساهمة تتراوح زيادة ونقصاناً تجعل من هذه السلسلة كائناً حقيقيًا وفردا فوق الفرد .

وليس هذا المفهوم من المفاهيم المألوفة لدينا فنحن لا نعرف سوى نوعين من الكائنات : (l'ens per se et l'ens per accidens) بيد ان تمييزنا هذا لا

يوضح لنا غنى الطبيعة ، واننا نقع على مبدإ لدى القديس توما يخولنا تحديد هذا الغنى عن كثب ، ان الكائن والوحدة يسيران جنباً لجنب وبنفس التساوق في الدرجات ، فهناك سلسلة وحدات مرتبة بحسب تدرجها الطبيعي (١٠) ، فان للعمل الاصطناعي والفني وحدة واقعية كالخلية والعائلة والامة والنوع فاذاً هي موجودات او كائنات ومن الناحية الاخرى ان العضو والخلية وادق جزء صغراً والذرة لها وحدة حقيقية وهي كائنات ، اما النوع-فليس واقعاً موجوداً فحسب ولكنه الواقع الحيوي المنظم كما يقول القديس توما (١١) .

ونظرية النشوء والارتقاء هي مفهوم روحي واجتماعي بجوهرها للعالم الحي، أوَ ليس ثمّ مذهب ديكارت الاناني ونسيان تعاليم القديس توما الحقيقية وسيرها القوي الاجتماعي يجعل من هذه النظرية فزّاعة لبعض المسيحيين ؟

وكان القديس توما اذا صادف امراً بدا له انه يناقض مذهبه الفلسفي لا ينكره واذا ظهرت له صحته سعى الى تفسيره وعند الحاجة الى تلطيف مذهبه : اهناك توالد عفويّ في الطبيعة، ولتفسره الاجرام السماوية لتسلم المبادئ ، وانه لم يكن يتردد عن وضع « مقاصد » روحية في الحاجز الشفّاف ليفسّر الرؤيا ، ولم يكن يعلم بان اسمى ميزة قدرة الخلق الفاعلة هي في كوكبنا الترّ : محور الكون ، لا في النجوم النائية ليس من حيث وجهة نظر الكم ولكن من وجهة نظر النائية والقيمة كما اوضحَ ذلك خير ايضاح الاب تيلهارد دوشاردين (Teilhard de Chardin) في مجلة Études ١٩٤٦ ص ١٤٥ وما يلي :

وفسّر الاب بريسبوا (Brishois) في المجلة اللاهوتية الجديدة لسنة ١٩٣٢ وفي الصفحة ٥٩٢ على صورة اخرى انتقال نوع « متافيزيقي » الى نوع اخر بالاستناد الى قدرة « الامتثال » التي ينقايا الله بشكل غير اعتيادي من القدرة الى الفعل ، لكن تفسيره هذا ليس تفسيراً فلسفياً لانه يناقض لاحد المبادئ التي وضعها القديس توما القائل : « ان القدرة المنفعلة الطبيعية تقابلها قدرة فاعلية طبيعية » (Supplément de la 3me. q. 75, a.3) فعندما لا تكون القدرة الا امتثالية فالحادث لا يكون من السياق الطبيعي والمثل على ذلك : « ان للعالم القائم قدرة امتثالية الى ارتفاعه المقبل (بعد يوم الدين) بيد ان هذا الميل ليس من سياق طبيعي (Ibid. q.91,a.1,3me et 4me réponses) وقال في محل

آخر ، ان تكوين الموجودات الطبيعية لا ينفي قدرها بحسب القدرة الالهية ولكن بحسب ما تقتضيه طبيعة هذه الموجودات (I^a q. 73,a.3, I^m, réponse) .

ومثة اعتراضات على نظرية النشو والارتقا . لا تمتّ الى الفكرة الفلسفية وانما الى العاطفية يكفي لردّها القليل من حسن الذوق الذي يخالطه شيء من معنى الجمال . الانسان متحدر عن حيوان : يا له من هول .

وليس التحدر كما يؤخذ من كلمة التحدار بل هو ارتقا . ٢ ان الانسان حيوان بكل ما في الكلمة من قوة وان كان من نوع لوحده ، اما العقل فيجعله في مصاف نوع لا يعدله مصاف ولا تحول دونه ودون تقيده بالنواميس الحيوانية كما يتقيد بناموس الثقل وليست حيوانيته حائلاً دون روحانيته الخاصة به وانما هي عمادها ، اما نظرية النشو والارتقا . فلن تبلغ الكامل الاتمّ الا متى انتهت بالانسان . افليس اقرب الى الصحة ان تأتي شجرة الحياة العظيمة بعد هذا الارتقا . نحو الحيوانية الكاملة زهرتها وثمرتها ؟ وان يتوقف مجهود الطبيعة امام طرفة الطرائف ؟ وان يدع الباري جانباً بعد ان اعدّ الانسان جميع هذه الاعداد وان يرفض في الدقيقة الاخيرة التعاون مع مخلوقاته الدنيا ؟ . . . اهناك مقصد خاص ؟ وهل المقصد اقل اختصاصاً والحب اقلّ ظهوراً اذا كان اعداد فعلي طوال مليار من السنين قد سبق النوع الانساني ؟ ليس لخير ما فينا من اجداد واسلاف في الطبيعة المحسوسة : انه نفحة الاله ، واي طائل نراه في ان يكون جسم آدم قد خرج مباشرة من التراب ؟ فانا افضّل ان اتعلّق بارض امي بوساطة طبيعة حية اهناك ، وفي كلتا الحالتين ان عمل الله هو مباشر (Cf. S. Thomas, IIIa, q.6, a1, ad 1um) واوقع في النفس في الثانية وان مجدها لم ينتقص بشيء . (١٢) .

ولما صنع الله ادنى انواع الحيوان في قربها من النبات كان يفكر فينا ، وعندما جعل الشطئان البارزة حافلة بالزحافات وعندما اتقن صنع الحيوانات اللبونة وعندما نقف قامة ارقى الحيوانات . في سلّم الحيوانية كان يعدّ جهاز الروح وهو يفكر فينا ايضاً .

وفي يوم من ابهى الايام . . . وعلى انتظار الذي سيرى الانسان الاله على ارضنا الصغيرة (minima ex principibus) استقبلت مجموعة اعضاء نامية

من صانع الحيوان الالهي اخر عمل صاغه باصابعه استقبلت الضيف المنتظر الا وهي النفس الخالدة على مثال الله .

لقد كانت شعلة جديدة تشع في عينين من اللحم وكانت علة الطبيعة قد شفيت وكان حب الكائنات الغامض للخالق يجد صوتاً وقلباً فاستطاع آدم ان يدوّي لنفسه ولجميع العالم الذي كان ملكه البكر انشودة العبادة :

باركي الربّ ايتها الحيتان وجميع ما يتحرّك في المياه .

باركي الربّ يا جميع طيور السماء .

باركي الرب يا جميع الوحوش والبهائم .

(دانيال ٣/٧٩-٨١)

المراجع والنصوص

١ — ما من شيء ينتقل من حال النقصان الى حال الكمال الّا بفعل صانع كامل، وفعل هذا الكامل لا يأخذه الناقص كاملاً من البداية، وانما يأخذه في الاول ناقصاً ومن ثم كاملاً (De la Vérité, XIV, 10) . ان الطبيعة تسير من الناقص الى التام (1re Partie de la Somme, question 101, article 2.) ما من شيء يصل الى كماله منذ البدء وانما على مراحل متعاقبة (1re de la seconde partie, question 106, article. 3.) في سياق السبب المادّي يتقدم النقصان ، وبحسب وجهة النظر هذه تسير الطبيعة من الناقص الى التام (2de de la seconde partie,question 1, art. 1, réponse 3me.)

٢ — لو وقفنا في الانتباه يتضح ان اختلاف الامور يشتمل على بعض الترتيب في الدرجات (3me livre Contre les Gentils. Ch. 97, paragraphe 2.) ان الطبيعة تنتقل من طرف الى طرف عن سبيل التوسطات . فلذلك يقوم بين الحيوانات البرية والحيوانات المائية نماذج متوسطة تتصل بهما كليهما (1re, question 71, article unique, 4me réponse) ان الخلق كان متعاقباً لا عن عجز بل عن قصد من الحكمة الالهية التي ارادت ان تتبع نظاماً ما وان تسير من الناقص الى التام (1re, qu. 74. a. 2, 4me réponse)

٣ — المادة الاولى هي في القدرة لشكل العنصر وهذه المادة المحتوية في

العنصر هي في القـدرة لشكل المختلط . وفي المختلط هي بالقدرة للشكل النباتي ، والنفس النباتية بالقدرة للحسية والحسية للعقليـة والى هذا الشكل الاخير تميل كل المادة (3me L. Contre les Gentils ch. 22) .

٤ — Cf. In Metaph. L. VIII (IX) c. 8,Ie,14 — Et Cf. supra III C.G. c. 22. الشكل هو قـدرة موجهة ; cf. IV C.G.c.19 ; Ie,q.80,a.1 ; IIe IIae, q.23,a.2.

٥ — Cf. Cahiers de philosophie de la nature - transformisme, 1927.
ولقد كتب المقدّمة خمسة مؤلفين: كوينو ، دلبيز ، كانيين ، تومبسون ، فيالتون.

٦ — في نظام تسارق الدرجات العام تتصل المخلوقات العليا بالجودة الالهية فلا تصير صالحة بذاتها فحسب بل لتصل هذه الجودة لغيرها ايضاً (De la Verité, V,8, La Providence se sert d'intermédiaires) وتبلغ كرامة العامل ذاتها الى مخلوقاتها (Ie, q. 22, a. 3) ان ما نتزعه من كمال المخلوقات فاننا نتزعه من كمال القدرة الالهيـة (3me Contre les Gentils, ch. 69) وان خير كائن يصبح الخير العام لجماعة اذا انتقل بعمل هذه الكائنات نفسها من بعضهم الى بعض (ibid) . وانها لنتيجة عمل الجودة الالهية ان تحفظ الامور وتديرها لا بالعمل مباشرة بذاتها وانما بجعلها المخلوقات تعمل (ibid. ch. 135) (٧)

٧ — كلّ شيء كوّن لغيره — In Metaph. L. XI (XII) c. 10,Ie,9 : Cf. Ie,q.15,a.2 ; q.47,a.3 ; q.48,a.1, ad 5um ; Comp. Theol. Ie pars, c. 149 ; I.C.G. c. 70.

٨ — ما من شكل جوهري قابل لاكثر من هذا او اقل ، غير ان ثمـة كمالاً اعظم ينتقل الى نوع جديد كما ينتقل جمع وحدة الى عدد عدداً جـديداً مختلفاً . . . اذا تلقى مركب شكلاً اكملَ فالشكل الاول قد انتسخ امـا الشكل الجديد فله كل كمـال الشكل الاسبق مع المزيد عليه وعلى هذه الشاكلة يصل المركب الى شكله الجوهري الاخير عن طريق التوالد وضروب الانحلال المتعاقبة . وهذه هي حال الانسان وحال المجموعة العضوية المتأتية عن انحلال الاجسام بعد الموت (Ire, q. 118, a. 2, 2me réponse).

٩ — متى كان اتخاذ شكل جوهري بصورة ناقصة وليس بجميع كمـاله ،

فالصفة الناجمة عنه عند من اتخذه ليست مستمرة استمرارًا مطلقًا. (1re, q. 67, a. 3, 1re réponse)

١٠ — ان الوحدة هي مقياس الكائن وعلى العكس (QuodlibetumVI, I) والكائن والوحدة هما خاصتا الجوهر المتعادلتان (1re, q. 76, a. 7)

١١ — الطبيعة امام نظرها النوع ، لا الفرد ولا الجنس لان الشكل (النوعي) هو غاية عملها والمادة (الفردية او الجنسية) هي لاجل الشكل (1re, q. 85, a. 3, 4me réponse) ان ما هو جوهري في قصد الطبيعة على ما يبدو هو ما كان مستمرًا ودائمًا. اما ما هو موقوت فقط فلا يبدو انه هدف الطبيعة الرئيسي فهو كواسطة بسيطة. ولما كان في العالم المنحلّ النوع وحده هو الذي يبقى دائمًا فلذلك كان خير النوع الغاية الرئيسية التي ترمي اليها الطبيعة (1re, q. 98, a. 1.) ان الانواع هي المراد لاجل ذاتها اما الافراد فلا يراد بهم الا كوسائل لتمديد بقاء النوع (De la Verité, V. 3.).

١٢ — ان اتمام عمل يحمل عاملين اخرين على صنعه بدلًا من فعله بالنفس ليس هو علامة ضعف ولكن علامة قدرة عليا (3me, q. 42, a. 1, 2me réponse).